السد المسعدي

التعريف بمحمود المسعدي :

كاتب ومفكر وسياسي تونسي، ولد بقرية تازركة بولاية نابل في 23-01-1911، وبدأ تعليمه في كتّاب القرية، حيث أتمّ حفظ القرآن قبل أن يبدأ مرحلة التعليم الابتدائي في القرية، ثم أتمّ الدراسة الثانوية في المعهد الصادقي 1933 وفي العام نفسه التحق بجامعة السوربون ليدرس اللغة العربية وآدابها، ليتخرّج منها 1936، ويشرع في إعداد رسالة الأولى حول مدرسة أبي نواس الشعرية، والثانية حول الإيقاع في السجع الأدبي.

لكنّ أزمة الح ع II حالت دون إكمالهما، وقام بالتدريس الجامعي في تونس وفرنسا، وإلى جانب ذلك انخرط في السياسة، حيث تولّى مسؤولية شؤون التعليم في حركة الاستقلال الوطني التي التحق بها مناظلا ضد الاستعمار الفرنسي.

كما أدّى دورا قياديا في العمل النقابي للمعلمين [illegible] بعد الاستقلال سنة 1956، تولى وزارة التربية، وأقرّ مجانية التعليم لكل طفل تونسي.

وقد كتب أعماله الأدبية بين 1939 _ 1947، منها حدّث أبو هريرة قال 1939، السد 1940، مولد النسيان 1945...

وتكشف هذه الأعمال الأدبية عن إحاطة بأعمال المفكرين على مرّ العصور، وبالأدب العربي القديم، الذي بدأ

اصطدامه به منذ فترة دراسته الثانوية. بالإضافة إلى اطلاعه الواسع على الآداب الفرنسية خاصة والعربية عامة.

السد وإشكالية التصنيف:

لم يتفق بعض الذين عرضوا لهذا العمل الأدبي بالقراءة والتحليل على تصنيفه في خانة بعينها؛
فذهب البعض إلى اعتباره مسرحية واعتبره الآخرون رواية، إلا أن هذا العمل في تقسيمه إلى مناظر واعتماده الحوار جعل منه من خصائص الدراما، ومن خصائص المسرح عناصر أخرى ما جعل أغلبية الدارسين، يرون أن المسعدي لم يكتب رواية خالصة ولا مسرحية خالصة، وإنما جمع بين ذلك.

أحداث السد

أصدر المسعدي في عمله الأدبي السد تعميقا لظاهرة التوظيف الأسطوري، ففي هذا النص، تتجلى صورة المثقف وعي ذاته في رياح العصر التي ينتمي إليه، تامكدا الحرية، فانطلق يبحث عن مثل جديدة تنتشد ليحيا الحرية، وتعلم الإنسان على صنع مصيره.
تبدأ أحداث هذا العمل الأدبي في منحدر جبل غليظ، نباته كالإبر وأرضه ظمأى، وغباره كثير، وسماؤه صفراء، وفيها يصور الكاتب إيمان البطل الأسطوري غيلان وتصميمه على إعادة الحياة وصبا غذاء الطبيعة من جديد في هذا الجبل، بعد أن يقرر إقامة سد يحبس الماء، إلا أن البطل وهو يقدم على هذه المغامرة إقامة سد في محيط يسوده الجدب والجفاف

تتنازعه تحولات، قوة الشك والإعراض التي هشلتها، وحبه مجبولة حسيا صدّه عن تحقيق الهدف، ودعته لأن يبقيه مجرد حلم يراود النفوس من غير أن يتحقق، كاملة = إذا أحبت العقل وأ بغيته فقد تكلته، فليبق هذا السد غير تام يا غيلان، دعه بلا نهاية.

أما قوة الإيمان، فقد مثلتها ميار، ذلك الطيف الذي كان يطل على غيلان مشجعا إياه على بناء السد، وهما تان القوتان لا توجدان خارج غيلان وإنما داخله، فهما تمثلان النفس الإنسانية في تطلعاتها وهداها، في يقينها وارتيابها في قوتها وعجزها ويقتفي غيلان أثر ميار متحديا صهباء آلهة القحط ومريديها (مؤيديها) من أمثال مجبوتة، ويشرع في بناء السد إلا أن العراقيل تعترض سبيله، فتشرخ حيام السد، إلا أن غيلان ظل يستمر على الرغم من هذه الظروف حتى تم بناؤه، غير أن الطبيعة ثورة فجأة وكأنها تريد الانتقام منه، فتقع أن الطوفان على السد وأدى لانهياره، فواصل غيلان المحاولة مرات عديدة إلا أنها تبوء بالفشل، ليتحول في الأخير طيرا يواصل عروجه إلى السماء، أي إلى مملكة الأرواح، مما يدعم أن غيلان يأبى إلا أن يكون مثالا للإنسانية البائسة المتجاوزة لحدودها، المتسامية للوصول إلى الهدف.

عنوان النص: دلالات وأبعاد

إن العنوان مفتاح إجرائي يمدّ النص بمجموعة من المعاني، تساعدنا في فك رموزه وتشغيل مامورية الدخول في أغواره وتشعّباته، وقد جاء عنوان الرواية حاملا للفظة السّد المشحونة بالكثير من الدّلالات والمعاني فهي تحيل الطارئ إلى الحياة، الظل والخضرة، ويرجعه الماضي البعيد إلى مصارة سد مأرب، التي بنته ملكة سبأ بلقيس (في اليمن)، ووفقا لبعض الأساطير والمصادر المؤرخة، فإن إحدى الملكات لم تكن عادلة في توزيع الماء، مما أغضب إله الماء، فأرسل الصواعق والسيول المدمرة، فهدم السّد، وبانهياره أصيبت مأرب بالقحط والجفاف، وشاع الجوع، وكان الناس يهلكون، بسبب ضياع ذلك السد رمز الخصب والنماء.
ولم يخرج الطوفان في سد المسعدي عن هذا الإطار العام، حيث كان التآمر من الآلهة صوهباء التي تمنع تشييد غيلان للسد وإشاعة الخضرة والنماء خروجا عن نواميس الحياة في الوادي، لأنه يعني خلق الحياة فيه، والخلق كفعل إنما تختص به الآلهة، فهو من وظائفها لا يشاركها فيها أحد، وكل من يسعى لذلك عوقب عقابا كبيرا، على نحو ما عاقبت الآلهة في الميثولوجية اليونانية بروميثيوس الذي سعى إلى تحرير الإنسان من العبودية وهكذا، مثلت نهاية غيلان النهاية الكارثية للإنسان، هذه النهاية التي دفع إليها عقابا من الآلهة، كونه شارك في ملكية الخلق.

الحضور الأسطوري في السد:

إنّ كثافة المادة الأسطورية وتنوّع مصادرها وشراعها عوامل ساهمت مجتمعة في جعل السد نصا مغلقا، ذلك أنّ المسعدي توجه في بنائه للسد نحو عالم الأسطورة، عالم أحداث متخيلة، وأسند أدوارها الأولى إلى شخصيات تقترب كثيرا من أبطال الأساطير القديمة، مما جعل عناصرها من سلوكات ومواقف تنزع نزوعا أسطوريا:

أ - على مستوى الأحداث: فإنّ الفعل الذي يقبل عليه غيلان بطل النص أولى الملامح الأسطورية، فالخلاف أنّ الخلق يكون من الماء، ولا يخرج السد عن هذه القاعدة، حيث لاحظ غيلان أنّ سكان الجبل يعيشون حالة من القحط والجفاف والمَلَل، مستبشرًا بين جانبي الوادي، شرع في بناء سد يشيع الحياة في ~~الجبل~~، ويسيطر على تلك المياه التي كانت تضيع هدرا، فتتصدى له الربة وتفشل مشروعه، فتهدم السد، إلا أنّ غيلان يعاود الفعل مرة أخرى وهكذا.

فالنص إذن، يعالج مشكلة الفعل، وعلاقة الإنسان بالمكان.

ب - على مستوى الشخصيات: يقدم لنا الكاتب شخصيات تحاول الارتقاء إلى الآلهة وأنصاف الآلهة، بدءا بغيلان الشخصية المحورية للنص، التي يبدو في بعض سلوكاته أشبه بالإنسان الذي نجده في الفكر الميثولوجي اليوناني، ذلك الإله الذي لا يختلف في كثير من الصور عن الإنسان العادي، فغيلان أشبه ببروميثيوس من حيث التمرد على السلطة الدينية، وشبيه سيزيف

في صاحب البناء وإعادته كلما فشلت المحاولة، ويخرج في عدد من السلوكات عن الطبيعة البشرية، حيث غياب شخصيات عن مرافقته، ثم يتحول في نهاية النص لمخلوق أسطوري يطير مختفيا عن الأعين إلى هالة الأرواح.

ومبارك هي الأخرى شخصية أسطورية استمدها لمسعدي من الأساطير العتيقة، وتعني إله الشر إلا أنه حوّرها من هذه الدلالة، بأن أسند إليها وظيفة غير تلك التي شاعت عنها (رمز الحنين) ففي القوة الدافعة والمحفز للبطل على بناء السد، في مقابل الآلهة وميمونة رمزا الشر الذي حال دون بناء السد.

وامتد تأثير هذه الأساطير ليشمل خاتمة السد كذلك، فالطريقة التي تم من خلالها هدم السد تشبه إلى حد كبير الطريقة التي كانت يعاقب بها الآلهة اليونانية مخالفيها، حيث سادت مرعب كل ما عند ما نتحدث بالرحلة التي أحدثته وتمثل ذلك في الرياح والعواصف والسيول الجارفة التي قضت على كل مظاهر الحياة في الجبل.

الحل: